البعد الاجتماعي والثقافي في مشاريع الاستثمار السياحي: تجربة قطر

بروفسور العياشي عنصر*

تمهيد

تلعب السياحة دورا اقتصاديا تقليديا شائعا كمورد للدخل، بما تدره المشاريع السياحية من عائدات، أو من خلال الأنشطة الأخرى المصاحبة لها والمرتبطة بها من قبل ومن بعد، مثل قطاع النقل، والتجارة ومختلف الخدمات الترفيهية. كما تؤدي بالإضافة لذلك دورا اجتماعيا على غاية الأهمية يتمثل في التعريف بثقافة البلد وتقاليده وفنونه وصناعاته. وهو ما يمثل عاملا حاسما في بناء جسور التواصل والتبادل بين الشعوب والثقافات المختلفة، ويساعد على تعزيز الصورة الإيجابية للدولة والمجتمع لدى الآخرين. وتزداد قيمة المشاريع السياحية وأهميتها وتأثيرها من الناحية الاجتماعية في حالة الدول الصغيرة حيث تكون فيها الحاجة إلى ما يسمى بالقوة الناعمة.

تقدم هذه الورقة نموذجا للدور الاجتماعي الرائد الذي تقوم به الاستثمارات السياحية في التعريف بالمجتمع وثقافته وتعزيز مانته في بين المجتمعات. يتمثل هذا النموذج في ثلاث مشاريع سياحية ناجحة قامت بها دولة قطر، إحدى دول الخليج العربي. هذه الدولة التي شدت الانتباه على عدة أصعدة أخرى مثيرة للجدل والنقاش، لا تخلو من رؤية بعيدة المدى على مستوى الاستثمارات السياحية التي تؤدي وظائف اجتماعية وثقافية متميزة وناجحة.

مشاريع سياحية اجتماعية وثقافية

1. سوق واقف
2. الحي الثقافي كتارا
3. متحف الفن الإسلامي

1- سوق واقف

يعتبر سوق أحد المعالم السياحية والأثرية المهمة في دولة قطر الحديثة. يمثل وجهة للزوار سواء من المقيمين أو القطريين، فضلا عن الزوار الوافدين على قطر من جميع أنحاء العالم وخاصة الأوروبيين على مدار العام، وبخاصة أثناء المناسبات الرياضية والعلمية والتجارية. يعتبر المقصد الأول لكل زوار الدولة سواء من الناس العاديين أو من كبار الشخصيات والنجوم. تحقق زيارته متعة متعددة الجوانب لزواره؛ منها الاطلاع على فن العمارة العربي القديم، والتعرف على التراث القطري في مجال الفنون والحرف، والتسوق على الطريقة القديمة التي تشتهر بها الحواضر العربية قديما.

* أستاذ علم الاجتماع بعدة جامعات جزائرية وأجنبية

يقع السوق في قلب مدينة الدوحة، يتوسط بموقعه المميز المنطقة التجارية القديمة حيث العديد من الأسواق الفرعية الأخرى. يربط المدينة بالبحر، فهو يطل من جهة على كورنيش الدوحة الجميل ذي الشكل الهلالي (جوالي 7 كم طولا)، ومن الجهة الثانية مجموعة الأسواق القديمة. تم إنشاء السوق بهذا الشكل وتسميته بهذا الاسم في عام 1955، لكن نمو المنطقة التجارية أدى إلى تكاثر البنايات الإسمنتية التي طغت على كامل المنطقة. أعيد بناء السوق بعد هدم تلك البنايات منذ عام 2004 بالحجارة والطين والأخشاب على طراز العمارة القديمة، لقد سبغ عليه ذلك رونقا وجمالا ونكهة خاصة جعلت منه معلما سياحيا وتحفة تراثية تستحق كل العناية والاهتمام..

ترجع تسمية سوق واقف حسب روايات كبار السن من تجار الدوحة إلى حقيقة مفادها أن المدينة كانت مقسمة إلى قسمين مرور وادي مشيرب بهذا المنطقة منذ زمن بعيد. تتعرض المدينة خلال موسم الأمطار الى فيضانات بسبب السيول التي تغطي منطقة السوق، وهو ما يجبر الباعة على التجمع على حافتي الوادي لعرض بضائعهم وهم واقفون بسبب فيضان الوادي وصعوبة الجلوس. (عنصر، 2010، مقابلة مع عدد من المواطنين في السوق).

يزيد عمر سوق واقف، حسب روايات المواطنين، عن قرنين ونصف القرن من الزمن، حيث كان التجار يتوافدون عليه لعرض مختلف البضائع المحلية والمستوردة مثل الحطب والفحم والدهن والأعشاب ومنتجات الحليب واللحم والسمك والتمر والسكر والملح والبهارات. سلع عديدة كان مصدرها بلدان بعيدة كالهند وإيران وتشيكوسلوفاكيا. أما السوق فكان يعمر طوال اليوم من الفجر إلى ما بعد العصر.

يضم السوق حاليا ثلاثة أنواع من المحال التجارية: أولا، "العمايز" وهي المخازن الكبرى التي تختص في تجارة السلع بالجملة والمفرق، وتخزن مواد البناء والأغذية كالتمور والأرز. ثانيا، "محلات المشغولات اليدوية" كالخياطة والنجارة، وأخيرا هناك ما يعرف بـ "البسطات" وهي الطاولات أو المفروشات المؤقتة التي يبسطها التجار على الأرض يوميا في الساحات وعلى جنبات الأزقة لبيع سلعهم. أصبح سوق "واقف"، في ظل التطور الاقتصادي والعمراني السريع الذي ميز السنوات الأخيرة، جسرا يربط حاضر قطر عموما، ومدينة " الدوحة " خصوص بماضيها الزاخر وبتراثها الأصيل.

يعتبر السوق مرتكزا للحركة التجارية في الدوحة، فهو يجذب الباحثين عن جميع أنواع السلع المثيرة مثل البهارات، التوابل، الاعشاب، العطور، آلات الموسيقى، المفروشات التراثية والملابس التقليدية. كما يحتوي على سوق للذهب وآخر للعطور وآخر للطيور، وبذلك صار وجهة مفضلة ومتميزة للجميع مقيمين وسياح على اختلاف اهتماماتهم وأذواقهم.

تنتشر في السوق أنواع مختلفة من الصناعات الحرفية التقليدية كالمشغولات اليدوية الشعبية، والسيوف والخناجر ، والتطريز، وهناك محلات عدية للسجاد التي تبهر بألوانها المتناسقة والجميلة الزائرين بمختلف مشاربهم. كما يتمتع المتسوقين والزوار بتجربة خاصة في مجال المأكولات والمشروبات؛ حيث تنتشر في على أزقة السوق وفي جنباته المقاهي والمطاعم التي تقدم مأكولات أصيلة من مختلف الأقطار العربية من المغرب إلى العراق مرورا بمصر وبلاد الشام، والشرقية الأخرى مثل إيران، والهند واليابان، والصين وماليزيا ، وهو يعطي الزوار فرصة لا مثيل لها للتمتع بمختل أصناف الأطباق والمشروبات مثل الشاي أو القهوة العربية، او القهوة التركية، وتدخين النارجيلة أو الشيشة التي تلاقي إقبالا كبيرا ولا يخلو منها أي مقهى أو مطعم.

2- الحي الثقافي كتـــارا

يعتبر الحي الثقافي مشروعا استثنائيا يزخر بالآمال والتفاعلات الإنسانية، وفي عصر حيث يجري تشكيل ثقافة معولمة جديدة بسرعة غير مسبوقة في تاريخ المجتمعات البشرية. لعل أهم ما تبرزه هذه التحولات السريعة والمعقدة هو الأهمية البالغة للتنوّع في مسارات التغير الاجتماعي وتطور المجتمعات البشرية. يعتبر الحي الثقافي "كتارا" من أكبر المشاريع السياحية ذات الطابع الثقافي في قطر حيث يجمع في جنباته بين أنواع عديدة من الفنون والممارسات الثقافية. الحي فضاء ثقافي بامتياز حيث يجمع بين العناصر المادية والمعنوية أو الروحية للثقافة؛ بدءً بالتنوع الطراز المعماري، وتعدد المطاعم ذات الأصول الثقافية والعرقية المختلفة، إلى تنوع الأنشطة الفنية، وتعدد الممارسات الثقافية. إنه فضاء مفضل لدى سكان قطر والزوار من خارج البلد، يقبلون عليه للتعرّف على ثقافات العالم، التي تتجلى في مسارحه الرائعة، وقاعات العروض الفنية، وقاعات السينما والموسيقى، ومرافق أخرى كثيرة.

يندرج مشروع الحي الثقافي كتارا مثل عديد من المشاريع الأخرى العملاقة في قطر ضمن استراتيجية بعيدة المدى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تضمنتها رؤية قطر 2030. وتمثل كتارا الوسيلة المميزة للتراث الثقافي في قطر. كما تلعب دورا رئيسيا في نشر الوعي بقيم الثقافة العالمية، وتأكيد الشعور بالهوية العربية والانتماء الإسلامي بذات الوقت. وفي هذا السياق يستضيف الحي الثقافي كتارا المهرجانات الثقافية في الفنون والسينما والمسرح والموسيقى، وينظم ورش أعمال ومعارض فنية متنوعة وفعاليات ثقافية من مختلف بلدان العالم، ومن بلدان المجاورة إقليميا وعربيا.

فكرة كتارا:

تندرج فكرة بناء الحي الثقافي كتارا ضمن استراتيجية تسعى لتصنع من قطر نقطة محورية على المستويين الإقليمي أولا، والعالمي ثانيا. واداتها في تحقيق ذلك كونها معلما أساسيا يشع بالنشاطات الثقافية المتنوعة بما في ذلك المسرح، والآداب، والفنون، والموسيقى، والمؤتمرات الفكرية، والمعارض الفنية والتجارية.

يطمح الحي الثقافي كتارا إلى أن يصبح نقطة يتقاطع عندها الماضي والحاضر والمستقبل، وملتقى للثقافات في عالم تتعدد فيه المرجعيات الثقافية، وتتنوع الانتماءات الحضارية. فضاء يُمكّن الزوار على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم وأذواقهم من تجاوز الحدود الجغرافية، والقفز على الحواجز اللغوية والثقافية لبناء هوية إنسانية تتلاشى فيها كل أنواع التمايزات؛ سواء كانت جنسية أو عرقية أو دينية.

معنى "كتـــارا":

"كتـــارا" (Catara) هو الاسم الأول الذي استخدم قديما للإشارة إلى شبه جزيرة قطر، كما جاء في خريطة كلوديوس بطليموس عام 150م، التي استندت إليها الخرائط الجغرافية والتاريخية منذ عام 1477م، الموافق للعام 882 هـ. ثم ظهرت بعدها في أطلس تاريخ الإسلام، حيث أشارت الخرائط إلى شعوب شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن الثاني الميلادي، وحدّدت موقع قطر الجغرافي باسم كتارا Catara جنوب غرب مدينة الجرهاء، وغرب مدينة كدارا.

أما التسمية (Katara)، فظهرت في الخرائط الجغرافية والتاريخية أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، (1738م) في خريطة فرنسية لساحل شبه الجزيرة العربية وللبحر والخليج، حيث كُتب الاسم "كتارا" بالصيغة الجديدة Katara بدلاً من صيغة Catara القديمة التي تعود إلى خريطة بطليموس عام 150م.

لا شك أن تتبع مصدر كلمة "قطر" وتتطورها خلال التاريخ هو في الوقت نفسه مفيد ومثير للاهتمام، حيث يلعب الثراء الثقافي دوراً بارزا في بناء المجتمع القطري الحديث. فالأسس القوية للهوية القطرية وقيمها نابعة من تعلق سكان المنطقة بجذورهم القديمة، ومسايرتهم للحداثة، ومواكبة التكنولوجيا.

يتمثل الهدف الاستراتيجي للحي الثقافي "كتارا"، بالأساس في دعم التراث الثقافي، وتعزيز الوعي به، وإعادة صياغة المشهد الثقافي الإقليمي والعربي من خلال نشر الثقافة العربية وتأهيل الأفراد، ودعم مواهبهم، وبعث حوار حقيقي يساهم في تقوية التسامح الفكري، والتبادل الثقافي إقليميا وعالميا. لذلك فإن استخدام الاسم "كتارا" هو بمثابة إحياء للتراث الثقافي القطري القديم، ويقوي بذات الوقت المكونات الحضارية التي تربط سكان قطر بجذورهم التاريخية، ويدمجهم بذات الوقت في سيرورة الحداثة والعولمة.

من هذا المنطلق، يندرج الحي الثقافي "كتارا" ضمن استراتيجية عامة للدولة هدفها تحقيق الريادة الإقليمية، ثم العالمية في الأنشطة الثقافية المتعدّدة، وتجسيد رؤية قطر الوطنية 2030. لتحقيق ذلك تبذل جهود معتبرة ومستمرة لرعاية سيرورة التغير الاجتماعي باستخدام الفنون والآداب والثقافة عموما. ويكون الإنسان هدف ووسيلة لتحقيق هذا المسعى من أجل بناء مجتمع قائم على الإبداع والابتكار. يهدف "كتـارا" لأن يصبح مسرحا لاكتشاف الثقافات المختلفة، وفضاءً لتعزيز الفهم والسلام. يوفر منصّة يجتمع حولها أقوام من حنايا العالم المتعددة، مختلفو الأعراق والثقافات يشاركون بثقافاتهم المفعمة بالحيوية، في بناء عالم حديث متعدد، متنوع ومتسامح يتسع لجميع الناس بغض النظر عن أصولهم ومعتقداتهم.

يتضمن الحي الثقافي "كتارا" مجموعة متنوعة من المرافق السياحية ذات الطابع الاجتماعي والثقافي منها ما يخص الفنون البصرية؛ مثل استوديوهات كتارا للفن- وقاعات العروض- ومركز كتارا للفنون- والجمعية القطرية للفنون التشكيلية- والجمعية القطرية للتصوير الضوئي- ومركز الفنون البصرية

وكذلك الفنون الأدائية؛ مثل المسرح الهواء الطلق (مسرح روماني كبير)- ودار الأبورا- والمسرح- والسينما: ومؤسسة الدوحة للأفلام- وكتـارا السينما. والفنون الموسيقية: أكاديمية قطر للموسيقى- أوركسترا قطر الفلهارمونية.

إلى جانب هذه المرافق الثقافية، تضم "كتـارا" مقرات عدد معتبر من الجمعيات المهنية والترفيهية ومسجدين، ومرافق خدمية للجمهور مثل المطاعم والمقاهي التي تقدم مأكولات مختلف البلدان مثل الهند، وتركيا، وأرمينيا، ومصر، وبلاد الشام..الخ.

3- متحف الفن الإسلامي

يقع متحف الفن الاسلامي في العاصمة القطرية الدوحة، ويتربع المتحف على مساحة إجمالية بلغت (260,000م2، يشغل المبنى الرئيسي منها حوالي (42,000 م2 (على الطرف الجنوبي من كورنيش الدوحة، ولا يبعد عن المياه البحر سوى 59 مترا وتحيط به حديقة واسعة عادة ما تستعمل لتنظيم حفلات فنية في الهواء الطلق، أو عرض أفلام، أو لأسواق المنتجات الفنية والتقليدية التي تنظمها إدارة المتحف من وقت لآخر. صممه المعماري الأمريكي الشهير (من أصول صينية) باي I. M. Pei. يتكون المتحف من المبنى الرئيسي وجناح خاص بالتعليم والأنشطة تتوسطهما ساحة واسعة مزينة بنافورات مياه. ويتشكل البناء الرئيسي من خمس طوابق تعلوه قبة كبيرة فوق قلعة مركزية على شكل كثير من المباني ذات العمارة الإسلامية التقليدية مثل مسجد ابن طولون في القاهرة.

أنجزت أشغال بناء المتحف من قبل الشركة التركية بيتور للبناءات Baytur construction Co. التي انتهت منه عام 2006، غير أن المساحات الداخلية شهدت تغيرات عديدة قبل افتتاحه بشكل رسمي في شهر نوفمبر 2008، خلال حفل كبير دعيت إليه شخصيات شهيرة من عالم السياسة بمن فيهم رؤساء دول ورؤساء وزراء، ومشاهير عالم الفكر والأدب والفنون. أعقب ذلك فتح المتحف للجمهور في شهر ديسمبر 2008.

أما المساحات الداخلية للمتحف فصممتها الشركة الفرنسية ويلموت وشركاؤه Wilmotte Associes.، بتوصية من المعماري نفسه. يستمد المتحف تصميمه من الفن المعماري الإسلامي التقليدي، مع تميزه بطابع خاص. ويعد الأول من نوعه في منطقة الخليج العربي. يشتمل المتحف بطوابقه الخمس على عدد كبير من القاعات لعرض المقتنيات الفنية الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك يحتوي المبنى على مكتبة، وقاعات للدراسة، وقاعة للعرض السينمائي. كما تتضمن البناية مقهى ومطعما فاخرا يقدم وجبات المطبخ الفرنسي بطعم عربي. ويقع المتحف وسط حديقة واسعة تطل على شاطئ البحر مقابل مدينة الدوحة الجديدة.

المقتـنيات الفنيــة

يشتمل المتحف على مجموعات متنوعة من الأعمال الفنية التي تم اقتناؤها منذ الثمانينات من القرن الماضي، بما في ذلك مخطوطات وأواني خزفية. ويعتبر من بين أكثر المتاحف التي تمتلك مجموعات متكاملة من المصنوعات الفنية الإسلامية المتنوعة المصادر، بما في ذلك إسبانيا، ومصر، وغيران، والعراق، وتركيا، والهند، وبلدان آسيا الوسطى الإسلامية.

دور المتحف في الحياة الاجتماعية والثقافية

يؤدي متحف الفن الإسلامي دورا رائدا في الحياة الاجتماعية، ليس لكونه معلما سياحيا رئيسيا يستقطب الزوار من المقيمين والزائرين لدولة قطر فحسب، بل لأنه محطة أساسية من محطات النشاط الاجتماعي الائم في دولة قطر. إذ بالإضافة إلى دوره التقليدي في عرض المقتنيات الفنية من كل الأصناف والأنواع الفنية، يقوم بوظيفة نشر المعرفة وتعلم الفنون من خلال المكتبة التي يضمها، وجناح تعليم الفنون، وقاعات العرض السينمائي والمسرحي. كما تشكل حديقته الواسعة المترامية الأطراف متنزها طبيعيا جميلا على شط البحر وسط الخضرة الدائم للشجار والنباتات المزروعة فيها بعناية. وفضلا عن ذلك تستخدم هذه الحديقة لاستقبال مختلف الأنشطة الاجتماعية من عروض فنية وحفلات موسيقية في الهواء الطلق، على شاطئ البحر، أو كموقع لعرض المنتجات الفنية والتقليدية في سوق شعبي (بزار المنتوجات التقليدي) حيث تعرض مختلف الجاليات منتوجاتها التقليدية على الجمهور للبيع. وبذلك يشكل المتحف نقطة التقاء الأعراق والأقوام، وامتزاج لمختلف الثقافات المتنوعة، والتقاليد المتباينة والمنتوجات الفريدة. وهو بذلك يقدم فرصة استثنائية للجميع، مقيمين وزوارا، للتعارف والتبادل والتفاعل والاطلاع على التنوع الثقافي الذي يزخر به المجتمع القطري الذي يضم ما يفوق180 جنسية مجتمعة كلها في قطر.

المراجع

1. http://www.qatartourism.gov.qa/ar qa/thingstodo/shopping/souqs.aspx#sthash.ddt45JR7.dpuf
2. http://www.katara.net/english/
3. The Museum of Islamic Art homepage (http://www.mia.org.qa/en.(Mia.org.qa. Retrieved on 2014-06-23.

3.It was officially opened on the 22 November 2008 by the emir of Qatar.
"Qatar's Islamic Art Museum to open Nov. '08"
http://www.kuna.net.kw/newsagenciespublicsite/ArticleDetails.aspx؟
Language=en&id=1878730. Kuwait News Agency. January 23, 2008.
Retrieved 2008-09-12.

4."Islamic Art Museum opens" (http://www.gulf-dailynews.
com/Story.asp?Article=235491&Sn=BNEW&IssueID=31248). Gulf
Daily News. November 23, 2008. Retrieved 2008-11-23.

5." Pei's Doha museum reflects splendor of Islamic art"
http://iht.com/articles/2008/11/23/mideast/art.php. International Herald
Tribune. November 23, 2008. Retrieved 2008-11-23.

6." Doha's Islamic Arts Museum:: Qatar Visitor"
http://www.qatarvisitor.com/index.php?cID=415&pID=1281.
www.qatarvisitor.com. Retrieved 2009-12-31.

7. Ouroussoff, Nicolai (2008-11-24). "In Qatar, an I. M. Pei Museum of
Imposing Simplicity - NYTimes.com"

8.http://www.nytimes.com/2008/11/24/arts/design/24muse.html.www.nytimes.com. Retrieved 2009-12-31.